

هذه المقالة للسيد ربيع الدبس نشرتها جريدة النهار في ٢٨/١٢/٢٠٠٢.

رد الصحافي يوسف أمين على كاتبها موجود بعدها مباشرة.

هل هؤلاء مراؤون؟

يقلم ربيع الدبس - جريدة النهار ٢٨/١٢/٢٠٠٢

"المسيحيون قضيتهم مع انفسهم اولاً

...المسيحيون كتلة المحبة لا كتلة طائفية".

المطران جورج خضر - النهار

نعم، كان ردنا واضحاً. وبوضوحه "اكتشف" اللامنتمي الموار بالضعيفة انتماعنا، اي شعورنا بالمسؤولية القومية والتزامنا اياها. ولكن لا يتاح لاي كان شرف الانتماء الى قضية، او الانخراط في حياة جديدة قوامها انسان جديد واع متخلق بعقلية اخلاقية جديدة لا مكان فيها للعار بل للغار ولا خبز فيها للعملاء والاذلاء بل للاعزاء المعطائين المؤمنين ان كل ما فيهم مرصود للامة حتى الدماء - الوديعة. فاذا سئلوا عن مواكب ودائعهم المردودة الى الامة قالوا: ان في اجسادنا عظاماً تتوثب لكي تكون رفات شهداء. لذلك كان منهم الشهيد - القدوة الذي اعتبر المبادئ اهم من الحياة نفسها، وهو اعتبار اخلاقي بامتياز علمه لتلاميذه ومارسه في شتى الاوقات العصبية التي بلغت ذروتها عام ١٩٤٩ كذلك كان من اولئك المصارعين اوائل الشهداء في فلسطين عام ١٩٣٦ كسعيد العاص وحسين البناء، كما كان منهم اوائل الاستشهاديين في جنوب لبنان ضد الاحتلال الاسرائيلي كوجدي الصايغ وسناء محيدلي. ومن دمهم السكيب تعمدت ارض بشامون عام ١٩٤٣ بشهيد الاستقلال سعيد فخر الدين، مثلما ترصعت عاصمة لبنان في "الوييمي" عام ١٩٨٢ بوهج الرصاصات الاولى للمقاومة الوطنية اللبنانية على يد الشهيد البطل خالد علوان. ولكن ماذا يقول الحرف في الشفتين ان قال الدم؟ ومتى نتعلم انصاف السراة الاباة الذين من جباههم يستقى عنفوان النسور ومن عيونهم وميض الارتياح؟

افيتاج اولئك والكثيرون سواهم من الجنود المجهولين الى شهادة ممن سوغ لنفسه يوماً الزعم ان مقاومة العدو الاسرائيلي عبء على لبنان، او ان ذهاب الشاعر اللبناني الدعي المنبوش الشعر الى الجامعة العبرية او الكنيسة او اي مكان آخر يرفع اسم لبنان عالياً؟! وهل يحتمل لبنان مزيداً من نكء الجروح التي احدثتها الحرب ولم يعتبر منها المواطن الذي عبأه ضد كل ما هو سوري وعربي، وعوده على قدايس سنوية تُقام "على نية فرنسا"، لا على نية بيت لحم، او قانا، او الجولان، فانقلبت المعايير خصوصاً لدى ذلك الذي يعد نفسه "ضحية"؟ فالام مثلاً تبقى بعض المراجع الدينية تتحدث حتى في عظة الميلاد الاخيرة عن "الشعب الماروني"؟ وهل تعيش في البلد الذي لا يكاد يظهر على خارطة العالم، شعوب عددها عدد الطوائف بل عدد المذاهب؟ فحتام العودة الى هذه الاغلوطات، ولمصلحة من يُنادى بل يُسوق لحرية الطوائف في التعرض للقضاء بل في محاولة تدمير البلد؟ اما النعمة الموتورة على المقاومة اللبنانية والانتفاضة الفلسطينية فعلاجها في العمل بمقولة بطريرك العرب الياس الرابع معوض التي جاء فيها: "كلنا مقدسيون وطريق القدس طريقنا، والمسيح هو القدائي الفلسطيني الاول". واما المعزوفة الحاقدة عن "جلاء الاغراب" فلا تستحق اكثر من التذكير بأن الغريب هو الذي اغترب عن حقيقته وحاد عن محوره فضل البوصلة وجمح به الهوى نحو التدليس على ذاته والآخرين.

تبقى الاشارة الى ان الذين تعنيهم سوريا قيادة وشعباً وارضاً وحضارة هم "مراؤون" بالنسبة للمعنيين بالصغائر والنفاهات والامراض اللبناية، بدلاً من ان يُعنوا بجدية النهضويين الكبار امثال جبران خليل جبران وفرح انطون والشميل والريحلاني واليازجيين ابراهيم وناصيف وسليمان، اضافة الى الاكليروس الممتور الذي يعبر عنه البطاركة: المعوشي والياس الرابع وعبواص ولحام، والمطارنة: يوسف الدبس وجورج خضر وغريغوار حداد واندره حداد وسليم غزال والياس كفوري وجورج رياشي وفيليب صليبا وجبران رملوي وعصام درويش والياس نجم والياس قربان، وقد لا ينتهي التعداد... الا اذا كان هؤلاء ايضاً "مرايين" في غفلة الذين غشيت ابصارهم او كُفّت عن ثوابت التاريخ وصناعة الحاضر وقراءة المستقبل

رد الصحافي يوسف أمين

بيروت في ١/١٢/٢٠٠٢

الى السيد رئيس تحرير جريدة النهار

رجاءً نشر هذا الرد في نفس المكان الذي نشرتم فيه مقالة السيد الدبس وذلك عملاً بحق الرد. ولكم منا

كل الشكر

قرأنا هذه السطور ولم نعرف ماذا يريد كاتبها، أهو يرد على أحد، أم قد جرحه موقف معين، أم أنه فقط يريد تثبيت موقف؟ فهمنا من خلال ما قال أنه قومي، وأن قوميته أعز لديه من الأوطان، وأن فيه مشكلة مع "الوطن الصغير" الذي "يكاد لا يرى على خارطة العالم"، وانه لا يعتز بطائفة، وينكر على الجميع هذا الانتماء وليس فقط الاعتزاز. ثم رأيناه يوزع الانتقاد ويكاد يشتم ذلك الشاعر "المنبوش الشعر" وكأنما اسمه يضايقه، وهو كذلك، فسعيد عقل أهم من أن يفهمه مثل هؤلاء الحاقدين الذين لا يعرفون سوى الدماء والعنف، وهو قد ملئ العربية حبا وفكرا، وحقدهم عليه لأنه أحب لبنان وغناه في كل قصائده. وهم وأمثالهم لم يعرفوا عن المسيح إلا أنه قتل وتوقفوا عن كل ما قاله وعمله. ثم نسبوا أنفسهم إلى الأرض التي لم تعترف بهم بعد، ولا اعترف لهم شعبها بأي فضل، فهم يناضلون ويقتلون ويقاثلون الناس وليسوا على بال أحد. هذا النموذج من الحزبيين الذين يعيشون حتى اليوم على أحلام النازية في ألمانيا هتلرية وقد ساروا على نفس النهج الذي اتبعه هتلر، إن في تعاليمهم التي تحب أن تجعل من سوريا وطنا واحدا وشعبا واحدا، وتسعى لتحقيق دولة على هذه الأرض التي يسمونها سوريا الطبيعية والتي لم تكن مرة في التاريخ واحدة موحدة التطلعات والأهداف ولا الحاجات أو المشاكل، ولكنهم، وبالطريقة الذهنية الألمانية الهتلرية، يريدون فرضها، وقد حاول "الزعيم" يومها تقليد "زعيم الرايخ" لأنه نجح في الوصول إلى السلطة، ثم بث فكرته في دول مجاورة، وفي النهاية أجبر الجيران على القبول بالتوحيد بالقوة وتحت ظل حكمه، وكان هذا حتى ١٩٣٩ يوم بدأت الحرب الكبرى وبدأت معها الفتوحات الهتلرية ثم الإنكسارات التي تبعتها ودفعت خلالها ألمانيا وأوروبا والعالم ثمن عنجهية "الزعيم" وأفكاره الأمامية. وبهنا نحن في لبنان والجوار أن نفهم لمرة واحدة أن الكلام على الغرب والإمبريالية والاستعمار وغيرها لا يبرر استيرادنا للأفكار لا بل نسخها حتى بالشعار والتحية والألوان، فالزوبعة السورية لا تزال تقليدا لصليب هتلر المعكوف، والأحمر والأسود في علمهم هي ألوان الأعلام النازية عينها، أما التعاليم فهي استنساخ مقولب على حجم سوريا بدل ألمانيا، وحتى الحقد على اليهود، وهو هنا اتخذ موضوع فلسطين بينما كان سببه الأساسي التشبه بالنازية الناجحة يومها، وقد تكون هي التي ساهمت في دفع هذا الحقد، وليس أول الأبطال عند أختنا سعيد العاص وحسين البنا قد قتلوا في ١٩٣٦ وان الثورة العربية ضد اليهود كانت يومها في أوج وعز الهتلرية والكل يعلم بأن

المرحوم الشيخ أمين الحسيني قائد الثورة كان متحالفا مع الألمان. كل هذه الذكريات فقط لنضع القارئ العزيز في الإطار الصحيح لهذه الفئة التي تتكلم دوما عن أمتها، وزعيمها، وشعاراتها، وكأنها قد أنبتتها أرض بادية الشام، وسقتها ينابيع دجلة والفرات، ودرجت على ملاعب جبال العلويين وسهول فلسطين، لتغتسل على شواطئ قبرص، والتي لم نفهم لماذا أضيفت إلى سوريا؟ هل لأن سكانها روم؟ أم لحاجتها كقاعدة بحرية مهمة لأساطيل "المحور"؟..

لماذا نسكر في الأفكار ولا نحاول، حتى بعد سبعين عاما، أن ندرس ونحلل مصادر الأفكار التي قلبت موازيننا يا سيد ربيع؟ لماذا أيها المفكر الذي لم يترك اسما في الأدب اللبناني، خاصة أدب الاغتراب، إلا ونسبه إلى قوميته، لا تحاول أن تدرس الأجواء والعصر التي قادت "الزعيم"، رحمه الله، إلى اتخاذ هذا التوجه؟ ففكرة ألمانيا، وطريقة هتلر، لا بد كانتا مثلا لكل الشعوب التي تحلم بنهضة سريعة، ولكن سقوط هتلر ودولته، بالسرعة نفسها وبالثمن الباهظ، يجب أن يجعلنا نراجع ما تربينا عليه بواقعية، فنأمل بوضعنا ولا نسرح فقط بالخيال، وننزل إلى واقعنا ولا نبقى نظير على سحب الأوهام. فسوريا، التي تحب أنت أن تفرح باحتلالها للبنان، لا يحكمها نظام قومي ولم يترك نظامها مجالا لإخوانك القوميون أن يكون لهم مكان فيها وفي حكمها. والطائفة المارونية التي لها تاريخها الحافل بالنضال في سبيل استقلالها وحريتها حتى من إمبراطور الروم، عينه، فكيف من الخلفاء والسلاطين وزمر الباشوات، لا يمكنها أن تقبل بأقل من السيادة لوطنها الذي تميز عن المحيط بأنه كان ملجأ الجميع كيفما اختلفت انتماءاتهم، وتغيرت مذاهبهم، وقد توصلت هذه الطائفة، لتجعل من لبنان موطن كل الطوائف التي لا تعترف بها أنت، ولكل منها تاريخها وحضارتها ونضالها وشهداؤها، وتريدون لهم أن يتناسوهم كما تفعلون أنتم؟ وإن كنت تريد أن تفخر بأسماء الذين سقطوا من جماعتك وهم لا يتعدون أصابع اليد، هنا، فلكل هذه الطوائف، التي تنكر عليها تضحياتها، آلاف الشهداء ومئات القديسين والزهاد والعقلاء والمفكرين، الذين يفخر بهم تاريخ لبنان، هذا الذي لم تستطع أن تراه على خارطتك، ولكن العالم كله يعرفه جيدا أكثر مما يعرف عن سورياك وبطاح صحاريك التي لم يسكنها بعد سوى الرمال والرياح ولا يجمعها إلا بنات أفكاركم ورحب خيالكم.

أيها العزيز باسم عائلته، لأن المطران الدبس أحد مراجع تاريخ لبنان والكل يجله، لا تكن معقدا ككل الحزبيين المنغلقيين إلا على ما تعلموه، وهو النقص بعينه، إفتح عينيك وتطلع حواليك، فترى بأن سوريا الأسد قد حكمت بالبطش والمخابرات شعب سوريا، وهي أرهقت لبنان بكم وبأمثالك، يقاثلون للا شيء، ويموتون بغير سبب، لأن النتيجة واضحة، أن سوريا الأسد، المستمرة في البنين والأحفاد، ستحكم لبنان بنفس الطريقة المخابراتية، وستكم الأفواه، ودوركم أت، وستخلق كل يوم فتنة بين اللبنانيين، لتزيد قبضتها تحكما بالبلد، ولن تحلم أنت أو غيرك بأن تصبح مواطنا في سوريا الكبرى، متساويا مع الكل، تعشق كما يحلو لك مبادئ: العدل والخير والجمال، لأن العدالة لا تعيش في ظل الديكتاتورية، حتى ديكتاتورية "زعيم الرايخ" أو "زعيم الأمة"، ولا يجاور الخير جحافل الشر، التي تدب الرعب في بيوت الناس، وتأكل لقمة الفلاح، وتسرق أمن التاجر، وترهب فكر الكاتب، ولا يمكن للجمال أن يحيا مع الحقد، الذي يوزع يمنا ويسرى ويصنف الناس كلهم أعداء، ولا يمكن أن يقبل المسيح أن يترافق اسمه مع حقد من تسمونهم فدائيون، أو استشهاديون، أو انتحاريون، لأن الفرق شاسع بين من يحب ومن يكره.

فسلام على بلاد لا يعبق منها سوى روائح الحقد، ولا تحاك فيها سوى مؤامرات الشر، ولا يكتب فيها سوى لعنات لكل من اختلف عنها بالفكر أو بالمظهر أو بالمعتقد.

وسلام على من يقدر جبران ولا يعرف أن يقدر سعيد عقل، لأنه يعتقد بأن جبران ينتمي إليه وسعيد عقل لا، ولكن جبران وسعيد عقل هما سوية يؤلفان جناحان رائعان للبنان الذي لم تعرف أن تحب والذي لن يفخر أبدا بأمثالك ولو تصدروا مع المحتل أول الصفوف وجلسوا في صدر القوم.